

"لست هناك، ولست هنا"

محمود بركة، فلسطين

هناك في غزة، وهنا على مقربة منها، يستمر فعل الكتابة في البحث عن تكوين الدوائر الفاعلة لإيقاف نزيف الموت غير العادي، في هذه الأوقات الخطرة نستدي الكتابة لتتفقد حواسها، وترافقها أدوات وصف الحدث الأصعب في التاريخ المؤبد من حيث المكان والزمان، حتى تتدرَّب الترايديات على التحرُّر من نزيف لا ينتهي من ويلات الحرب.

تأتي الكتابة هنا في محاولة لاستنطاق الذاكرة الوليدة في الحرب. في بداية الحرب جلست رفقة صديق، نلتقى الأخبار والرسائل من غزة. لم يكن العقل قد استفاق بعد على ويلات الحرب والمأساة. سألتني صديقي في تلك الأوقات، والصواريخ تدكُّ المباني في التلفزيون: هل تذكر الأماكن التي كنا نذهب إليها؟ هل تذكر الأصدقاء ممن جلسنا معهم لساعات؟ صمتٌ طويلاً، فأيقظني صوته، بعد صمت أيضاً: "لم تعد الأماكن موجودة، فقد دُمرت، وبعض الأصدقاء استشهدوا." في تلك اللحظة، شعرت بفقدان جزء كبير من جسمي. ظلَّ الوقت يمتدُّ بالحرب والموت والنزوح والتجوع، والرسائل والأحاديث مع الأهل والأصدقاء تقبض على الروح. "كانت" أياماً طويلة، لكنها "لا تزال" مستمرة، وفيها شريط مهول من الصور والأصوات.

في غزة، وحرب الموت المفتوحة (إبادة التجوع، والتدمير الشامل، والنزوح الذي لا يتوقف)، فقدنا أناساً رسموا السردية الفلسطينية، في: الثقافة، والفنون، والتعليم، والكتابة، والترجمة، والإبداع، والموسيقى، والمسرح... وفقدنا المراسلين والمصورين، فقدنا الكثير من أوجه فلسطين. هؤلاء صاروا حكايات ضدَّ النسيان، ولو على حجر واحد، سيبقى أثر وجودهم الحيّ، يروي الحكاية، وآخرون واصلوا السير رغم هول الحدث وقسوة الحرب. أحياناً يكون سرد الأمر بسيطاً لا يحتاج إلى التعريف الكثيف والنقاش الطويل. فحين ترى وجه الفلسطيني وملامحه، سترى تعريف الأرض بين عينيه، وسترى علاقته بالمكان، لأن هذا الجسد ولید الأرض والزمن الفلسطيني. وفي مقارنة، قد لا تكون مقبولة مطلقاً، سترى في وجه المستعمر "الإسرائيلي" منذ اللحظة الأولى انفصاله عن المكان، إذ لا شيء بينه وبين فلسطين غير وجوده الغريب بقوة الاحتلال وحياته في المستعمرات. الفلسطيني الذي يريد أن يفتح بلاده على العالم، والمحتل الذي يريد تحويلها إلى مستعمرات لا تنتهي، لأنه كائن يعيش على التدمير والفوضى، ولأنه الغريب الذي ترفضه البلاد.

هذه محاولة أخرى للكتابة، والكتابة ليست ترفاً، كما يؤكد أطفال غزة وأهلها: فالحقيقة واضحة، وإن كانت تحت الركام، لكن الصوت سيبقى في امتداد الأرض كبحر البلاد من غزة مروراً بيافا وحتى عكا، لا يغيره احتلال المستعمرة

وحصارها، ولن يسكنه جبروت المستعمرين وتوحشهم. فالزمن الفلسطيني ظلّ يكتب، منذ نكتبه الأولى، شهادات حيّة وأنواعاً أخرى من الكتابة التي لا يكون فيها الأرشييف ضدّ الأرشييف. نعم، قد لا يكون الأرشييف ضدّ الأرشييف إذا استمر برفع صوت الحقيقة والذاكرة في وجه قانون لا يخجل، وفي وجه أنظمة الفرقة. ففي الأرشييف العربي والعالمي، كتابة فلسطين تمكّن من يعود إليها من أن يجد فلسطين، وأن يجد الأثر الكتابي الذي يحمل الشهادة والمقالة والقصيدة والموسيقى والرسم... شواهد على ما تعيشه فلسطين من نزيف لا يتوقف.

في هذا الملف الذي أكتبه لـ"الجنوب"، أسجّل شهادة تحمل الحقيقة الفلسطينية في غزة، وما عاشته من دروب الآلام، من غزة قبل الحرب، وفي إبان وقوع الإبادة، والخروج من غزة إلى مصر، حيث تنتظر الغزيين حياة أخرى ومصائر أخرى، وإقامة بسبب الحرب، تغيّرت جغرافيا الوقت، والأمنيات، والعمل، حتى الكتابة أخذت جهة التحولات، بين الحرب والخروج، ورسائل خارج المكان، إلى المكان نفسه، وتلك تحمل سردية أخرى من الألم، الذي ينطق باسمه غزيون وغزيات لا زالوا "يربّون الأمل"، وهم: ناصر عطا الله، وعرب محمد، وهبة الأغا، وماهر المقوسي، وماجد ترaban، وعبد الهادي بركة، وعزيز المصري، ومعهم الأسيران المحرران والمبعدان إلى مصر خلال الحرب على غزة، وهما: أسامة الأشقر من طولكرم، ورائد عبد الجليل من نابلس.

"أوصيكم بفلسطين، أوصيكم بأهلها، وبأطفالها المظلومين الصغار، الذين لم يمهلهم العمر ليحلموا ويعيشوا في أمان وسلام..." من وصية الشهيد الصحافي أنس الشريف

خروج يسبق فقدان الندي والحري ناصر عطا الله، شاعر وكاتب من غزة، فلسطين

خرجتُ قبل الحرب بأيام قليلة لحضور مؤتمر في دمشق، ومع الحرب تعذرت عودتي بسبب احتلال رفح. تغيّر الحال على حياة الشاعر بعد خروجه من أرضه ومجتمعه وحياته الطبيعية إلى المنفى، أيّاً كان هذا المنفى، سواء كان في الجوار كمصر، أو في أوروبا وغيرها من الأماكن. أنزل هذا المنفى عن ظهر الشاعر جماليات الروح، والهدوء والسكينة التي كانت تلازمه في حياته، حين عاش نصه الشعري لغة مختلفة تماماً في السياق الجديد. يعيش الشاعر منفاه مثقلاً بأعباء كثيرة، منها: الشوق والحنين في الوضع الطبيعي، لكن في الحرب الدموية القاسية التي يعيشها أهله وأصدقائه وعائلته، فإن الأمر يصير مختلفاً. الأمر في هذه الحالة شديد الوطأة عليه، وبالتالي تكون أدواته دون إرادة منه، ودون تدخل المعاجم التي يتابعها ويتبعها، إلا إن مفردات الحرب تختلف اختلافاً كبيراً، حتى النفس التي ترتب وضع إنسانيته تختلف مع القلق والخوف والمجهول الذي يتحول إلى شبح. كل هذه المفردات تغير في الشاعر ومحور القصيدة ولغتها نحو أشياء جارحة للروح ونافية للسكون. في هذه المرحلة يزداد عبء المنفى بمعانية القاسية على الشاعر الذي لا استراحة لديه من حالات التوتر. لهذا، تكون القصيدة انعكاساً لسوداوية الحالة، وإذا ما تمسك الشعر بالأمل رغم ما عليه الواقع، فإنه يستطيع المكابرة بشكل مؤقت. إن الحالة المفروضة علينا، كفلسطينيين اليوم بشكل عام وشعراء

وفنانين وأدباء بشكل خاص، تجعلنا انعكاساً لكل هذا الألم الساكن على الأرصفة والطرقات، والخسائر الكبيرة التي نعيشها ليل نهار، وأفدحها خسارة الأرواح. لهذا، نتمنى انتهاء هذه المرحلة، بإنهاء المقتلة، لأننا أناس طبيعون يستحقون حياة بلا بموت وقنابل تدق أرواحنا دون رحمة.

لقد تغيرت الكثير من العادات عما كانت عليه من قبل، في غزة. كنتُ استيقظ مبكراً لتفقد الأزهار في بيتي وطائر الهدد، وأخذ كتابي وفنجان قهوتي... ذلك كله أصبح مفقوداً الآن، إذ صرت أصل الليل بالنهار حين أخذت الأخبار أكبر مساحة من الوقت الذي أعيشه، وهذا خراب في ترتيب الحياة. في زمن غزة كنت أعيش لأجل إنتاج إبداع طيب وطبيعي، لكنني اليوم أعيش فوضى يعتبر مسارها ومركزها الخبر الذي يخرج من غزة كي أتفاعل معه. حتى النصوص التي أكتبها هي انعكاس لهذه الأخبار الصعبة. كما أن الحالة الجديدة التي تسببت بسلبات كثيرة على العائلة والأصدقاء في غزة، انعكست سلباً على روجي. لقد أصبحنا انعكاساً لكل هذه الفوضى التي يعيشها شعبنا في غزة، ففقدنا النوم والهدوء والسكينة، كما فقدنا المقدمات اللازمة لراحة النفس وإعمال العقل قبل الكتابة وإنتاج الإبداع، إذ كيف نكتب ونحن على حبل القلق الدائم؟ كل شيء تغير لصالح الفوضى والخراب، وليس لصالح الإبداع الحقيقي الذي كنا نصبو إليه لكي نبني الحياة بحجر من الندى والحرير. للأسف الشديد أحجارنا اليوم سقطت وأصبحت ركاباً بسبب العداء الصهيوني وعدوان الاحتلال "الإسرائيلي" الغاشم علينا وعلى أرواحنا ومصيرنا، وصار وضعنا بأكمله برسم المجهول.

"مات أطفال لم يستخدموا أسماءهم بعد"

الشهيدة هبة أبو ندى

السنونو لا يموت، بل ينتظر الربيع عرب محمد، شاعرة، ومديرة مؤسسة السنونو للثقافة والفنون في غزة، فلسطين

في غزة، لم تكن نُري الطيور لتحلق بعيداً، بل كنا نعلمها كيف تنجو. لم تكن نخشى فقدان بقدر ما كنا نخاف السقوط، علمناها أن تختبئ من الغارات، أن تغني بصوت عالٍ رغم القصف، أن تفرح داخل القفص بأمان، خشية أن تطالها يد القاتل عن بعد. حتى السنونو، ذاك الطائر الذي اقترن في الذاكرة ببشارة الربيع، لم ينج من التشظي. في غزة، صار اسمه قنديل الأمل: جميلاً كالعلم، قصيراً كالعمر في زمن الحرب.

مؤسسة السنونو للثقافة والفنون لم تكن جدراناً، بل جناحين واسعين لحلم ولد في قلب الدخان، وحلق برغم الحرب. أنشأها أنا وزوجي، الموسيقار الدكتور هيثم المغني، كمأوى للضوء، وسط مدينة تئن تحت الرماد. دخل الأطفال أبوابنا مثقلين بالخوف، بعينين تتسعان على مشاهد لا تليق بطفولة. خرجوا وقد تنفست أرواحهم للمرة الأولى، ضحكوا، غنوا، رسموا... حتى الدبكة الفلسطينية على إيقاع الأرض النازفة. كتبوا أحلامهم بالألوان، كأنهم يرممون ما أفسدته السياسة، والحصار، والموت. كان كل زائر يرى في وجوههم وجه غزة الأجل. لم يكن الفن ترفاً، بل وسيلة نجاة: الرسم كان صرخة من لا يملك صوتاً، الموسيقى طوق

نجاة وسط الحطام، والدبكة كانت فعل مقاومة، طفل يطرق الأرض بكعبه الصغير، كأنه يقول للقصف: "أنا هنا، ولن أنكسر لكن الحرب، كالعادة، جاءت بلا استئذان."

في تشرين الثاني 2023، سقطت السنونو، بيت الفن والثقافة والإرادة. لا زلت أسمع ذلك الصوت، كأن السماء نفسها انهارت، تهاوت الجدران، تهشمت الآلات، تناثرت دفاتر الأطفال. ما سقط لم يكن بناءً فقط، بل ذاكرة، وأمان رعيانه كألم تحتضن قلب طفل بعد كابوس طويل. قال لي طفل صغير بعد القصف: "كنت أحب أبي أعزف وأغني، هلاً ما في مكان يحضن أحلامنا." يا ريتني ما رحت ولا شفت، حسيت المكان بينادي وببتوجع، زي كل شي موجوع بمدينتنا المغتصبة. وكيف أقنع قلباً صغيراً أن الأغنية ستعود يوماً، حتى لو لم يعد المكان؟ كيف أرد؟

بعدها، في زمن الحرب، غادرت غزة، لا لأني أردت، بل لأن الحرب دفعتنا جميعاً نحو الهامش. وصلت القاهرة بجسد منهك، وقلبٍ مثقل. توقفت عن الكتابة، ليس لأني لا أريد، بل لأن الحروف ضاقت عن احتواء الألم. تساقطت الأقلام من يدي، تلك التي اعتدت أن أخطب بها مشاريع الأطفال، وأغنيات حب الأرض والبقاء، ودروساً للحياة... سقطت الأقلام كما يسقط سراج على الأرض، ليشعل داخل حزنٍ لا ينطفئ، إلا حين تخمد جذوة هذه الحرب المسعورة. منذ ذلك اليوم، وأنا أراقب غزة من بعيد، كألم ترى بيتها يحترق ولا تستطيع الركض إليه.

الغربة ليست سफراً فقط، الغربة أن ترى بيتك وما تحتويه تروس الذاكرة مؤسستك، التي كانت صوتاً وأملاً، تتحول إلى ركام، أن يقصف وجه غزة المشرق، ويبقى من الضوء صورة قديمة وفيديو قصير وذكرى لا تنطفئ. لكن، هل يموت الحلم؟ لا، وألف لا، الحلم الذي شق طريقه عبر جدران القهر لن يموت. سيبقى السنونو شراعاً للأمل. ما زلت أراها في ضحكة طفل، في لوحة نجت من الركام، في رقصة صغيرة على أنقاض كبيرة. السنونو لم تكن طائراً هشاً، كانت فكرة. والفكرة، حين تنمو في أرض جريحة، تصبح شجرة مقاومة.

ها أنا أكتب، بعد صمت طويل، أكتب كي لا يُنسى الصوت، كيلا يُقال إن الفن مات، وإن الأطفال صمتوا، وإن غزة فقدت وجهها الجميل. نحن موجوعون، نحمل فينا الرحيل، والفقد، والذكريات المحترقة، لكننا نملك الحكاية. والحكاية، حين تُروى، تنفذ ما تبقى من الذاكرة. إلى من يقرأ كلماتي من بعيد، لا تبحث عن السنونو في السماء، بل ابحث عنها في طفلة ترسم على جدار مهديم، في يد صغيرة تعزف رغم انقطاع الكهرباء، في خطوة دبكة تتحدى الفراغ. السنونو، لا يموت، السنونو لن يموت، بل يتخفى، ويعود حين يأتي الربيع.

"الليل هنا، لا يشبه ليل الناس، نحن الآن بلا نوم، يا أسياد النوم العربي، فالنار هنا من أخمص أرضي حتى الراس."

الشهيد الكاتب سليم النصار

بين زمانين، بين مكانين هبة الأغا، كاتبة، وحكواتية، ومدرّبة كتابة إبداعية من غزة، فلسطين

الاكتشاف المؤلم ليس في الانتقال بجسدك من مكان إلى آخر، بل لأنك تحمل عمرك كاملاً، ووطنك كاملاً، تخرج به من حدود ضيقة محتلة إلى أخرى أوسع، لكنها لا تشبهك. انتقال الكاتب ليس عادياً، فهو كائن حسّاس، يتأثر بكل ظلّ وصوت. هكذا خرجنا، نحن كتّاب غزة، مثقلين بالذكريات واليوميات التي كانت مليئة بالتأمل، بحثاً عن نصّ أو معنى. كنا نكثر المشي، نحدّث البحر، نحفظ الشوارع كما نحفظ وجوه أحبّتنا، نحمل البلاد في قلوبنا وأقدامنا.

الأصعب أن يكون الكاتب امرأة وأماً. تصبح المعاناة أكثر تفصيلاً، والغياب أكثر وجعاً. كنت أعمل وسط أصوات التلاميذ الذين يتعلّمون كيف يفكرون بحرية. نحكي قصصاً عن سندريلا وظريف الطول وجبينة، نفتح الكتب في مكتبة ملوّنة تشبه الحلم. كنت أعيش الأمل في عيونهم، وأغرف من طاقاتهم حبّاً لا ينضب. في البيت، كان صغيراي يعودان بيوميات المدرسة كأنهما نهر لا يتوقّف عن الحديث، ثم جاءت الحرب، وخرجنا. في الغربة، نلنا الأمان والطعام، لكننا فقدنا إيقاع الحياة، غابت المدرسة، غابت صالة البيت، غابت المكتبة، غابت قاعات التدريب، والأهم أنه: غاب الصوت، صوت الأطفال، وصوت القصص، وصوتي أنا. أحاول اليوم أن أكتب، لا لأتذكر فقط، بل لأبقى، ففي الغربة، تصبح الكتابة شكلاً من أشكال البقاء، وصوتاً يحاول ألا يضيع.

"علّمنا هذه المقتلة كيف تختصر الأشياء،
كأن يصبح كل شيء قابلاً للطّي، كأن العالم صغير حدّ أن تحمله خلف ظهرك،
كأن العالم كلّهُ في حقيبة، أو حتى في يديْن اثنتين وظهر عارٍ."
الشهيدة المصورة والكاتبة فاطمة حسونة

كتابة بين الغارات، وجرح النزوح والخروج ماهر المقوسي، شاعر من غزة، فلسطين

في غزة، لا يولد الكاتب في حضن المؤسسات، بل على حافة الحرمان، لا حاضنة ثقافية حقيقية تحمله، لا جهة رسمية تحتضنه، لا مظلة مالية تحميه من الحاجة أو الجوع أو انكسار الحبر. المثقف الغزّي، قبل الحرب وبعدها، ظلّ طليقاً في المعنى، أسيراً في الواقع: يكتب من جرحه لا من دعم، ينشر بدمه لا بمنح. عندما اشتعلت الحرب، لم تُفرّق بين المثقف وغيره، بين من يقاتل بالبندقية، ومن يقاتل بالكلمات، هُدمت بيوت الكتّاب، ومُحيت مكتباتهم، وتوقفت مصادر رزقهم البسيطة التي كانت بالكاد تسند حياتهم. من بقي في غزة، عاش الموت على جراحات، وكتب بين الغارات، في عتمة الملاجئ أو أطلال البيوت. ومن نزح خارجها، حمل وجعها على كتفه، يتنقّل بين مدن لا تعرفه، ولا تسأله عن نصوصه التي تُكتب في العراء.

لم يجد المثقف من يسأله: كيف تعيش؟ كيف تكتب؟ ما مصير كتابك الذي لم يُطبع؟ كيف تشتري طعامك وأنت تسجل شهادة شعبك؟ لا راتب، لا دعم، لا مؤسسة، لا أحد. كأن الكاتب لا يُعيل أسرة، ولا يشعر بالخوف، ولا يحقُّ له أن يمرض أو ينهار أو يطلب شيئاً سوى أن "يكتب" وكفى! وهكذا، تحوَّلت الكتابة في غزة من فن إلى فريضة، ومن إبداع إلى نوع من النجاة. لكن، رغم الخراب، لم يتوقف الكتاب. لأن الكلمة هنا ليست ترفاً، بل مقاومة، لأن الذاكرة لا تُبنى إلا بما يُكتب، لا بما يُدث. لأن المثقف هو من يشكّل الرواية، ويكتب الحقيقة قبل أن تُطمس، ويصوغ هوية الشعب التي تتعرض دوماً للتشويه.

في زمنٍ تتسابق فيه القوى الكبرى على رواية ما يحدث، لا يملك الفلسطيني رفاهية الصمت. لا بُدَّ أن يُدوّن، أن يشهد، أن يحوّل دمه إلى جُملة، وأن يحمي وطنه بالحبر حين تتكسر البنادق. الكاتب من غزة، سواء بقي فيها أو هُجّر منها، لا يزال يحمل معركته على كتفه: معركة البقاء، معركة اللغة، معركة إيصال الصوت إلى العرب الذين لم يسمعوا بعد، وإلى العالم الذي لا يريد أن يعرف.

إننا نكتب لا لنواسي أنفسنا، بل لنقول: كنّا هنا، هذه بيوتنا، وهذا لحمنا، وهذه كتبنا التي طُمرت تحت الأنقاض. نكتب لنمنع النسيان، لنفضح الظلم، لنحمي المعنى، ولنبقى الحقيقة حيّة في ذاكرة الناس، لا في أرشيفات الأخبار. وفي كل ذلك، نكتب وحدنا، نكمل الطريق وحدنا، نقاتل بالكلمات دون غطاء، ونُهان أحياناً بصمت المؤسسات التي يفترض أن تحتفي بنا وتناصرنا. لكننا، كما كنا دائماً، نعرف طريقنا، ونعرف أننا لسنا ضحية فقط، بل رواة المرحلة، وما لم نكتبه بعد، هو ما سيبقى من هذه الحرب.

"إذا سمحتُ لقصة بالتوقف، فسأكون خائناً لميراثي، ولأمي، ولجدتي، ولوطني، فالرواية، بالنسبة إليّ، هي أحد عناصر الصمود الفلسطيني، وهي تعلّم الحياة حتى لو عانى البطل أو استشهد في النهاية. وبالنسبة للفلسطينيين، فإن القصص تصقل المهارة اللازمة للحياة." الشهيد الكاتب رفعت العرعير

نزوح لم ينتهِ ماجد تريان، أكاديمي وكاتب من غزة، فلسطين

عاش المثقف الفلسطيني في غزة، على المستوى الأكاديمي، حالة من الاستقرار إلى حدٍّ كبير تسمح بممارسة الجوانب العملية والشخصية. فعلى سبيل المثال، قبل وقوع الحرب على غزة، شاركت بالعديد من المؤتمرات العملية، حيث سافرت قبل وقوع الحرب، للمشاركة في مؤتمر علمي في العراق، وعدت إلى غزة قبل بدء الحرب. عملت رئيساً وعضواً للجنة علمية في مؤتمر خاص في جامعة الأقصى في غزة. وعلى الرغم من صعوبة السفر من غزة وتقنيته والإشكاليات المعروفة في هذا السياق، كان ثمة ما يتيح لنا المساهمة والمشاركة بالأنشطة العلمية والأكاديمية عبر الإنترنت وبرامجه المتوفرة سواء داخل الوطن أو خارجه. في حينه، كان لديّ عملي الأكاديمي

والبحثي الذي أمارسه بشكل يومي داخل جامعة الأقصى وفروعها، وبخاصة في كلية الإعلام، وشركة الإنتاج للدراسات والأبحاث الخاصة بالإعلام والاتصال. هذه السطور ترسم صورة الانطباع عن شكل الحياة في غزة، على الرغم من الحصار وغياب حرية الرأي بسبب الاحتلال، ومن ثم الانقسام الفلسطيني. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان هناك ما يتيح التفاعل على مستوى الإنتاج العلمي والمعرفي، والحياة الاجتماعية على صعيد الأبناء في المدارس والجامعات والمعاهد في غزة، وتلك حياة بصورة مختلفة قبل وقوع الحرب.

لكن الحرب قتلت القصص والحياة. جاءت الحرب بكل ما تحمله من قسوة، وبكل ما تحمله الكلمات من قسوة في وصفها، وأحدثكم هنا عن بعض ما حدث معي، وما أصابني على الصعيد الشخصي والعائلي. في بداية الحرب، خلال الاجتياح الأول لجيش الاحتلال، أُحرق بيتي شرق غزة بشكل كامل، كما تمّ تدمير جزء منه. تحول كل ما في المنزل إلى رماد، والمكتبة حصاد التعب والسفر أحرقت بكاملها. ومن ثم بدأت مرحلة النزوح الأول من المكان، وقد تسبب ذلك بانقطاع العمل الأكاديمي وغياب التواصل، حيث دفعني ذلك إلى النزوح مع عائلي من الشرق إلى غرب غزة في حي الرمال. وسرعان ما جاء النزوح الثاني إلى حي تل الهوى في مدينة غزة، وذلك قبيل قرار الاحتلال ترحيل أهالي شمال غزة إلى الجنوب. وقد دفعني ذلك للنزوح الثالث مجدداً مع العائلة إلى المحافظة الوسطى للإقامة المؤقتة عند صديق. وبعد أن طال أمد الحرب، فتحت جامعة الأقصى أحد فروعها في الجنوب بمدينة خانيونس للنازحين من العاملين والموظفين في الجامعة، وكان مشهداً لا يمكن للعقل تصوّره، حيث القاعات الدراسية التي كنا نعمل فيها، أصبحت غرف نوم وملجأ للنزوح... إلى أن أصبحت الجامعة تستقبل أعداداً أكبر من النازحين من غير العاملين في الجامعة. كان ثمة ما يقارب 30 ألف نازح. في حينه، امتد اجتياح جيش الاحتلال "الإسرائيلي" ليقترّب من موقع الجامعة، واستشهد في تلك المرحلة دكتور جامعي زميلنا، كما استشهد عدد من النازحين الآخرين. ولخطورة الموقف، خرجنا في النزوح الرابع إلى منطقة المواصي في الخلاء دون وجود أي مكان للإقامة. وقد استمر ذلك إلى أن اشترت خيمة، ونصبتها في المكان، ودامت أقامتنا في الخيمة مع عائلي مدة أربعة أشهر. في هذه الفترة وما أعقبها، والتي استمرت ما يقارب تسعة أشهر، تحولنا من أساتذة جامعيين نعيش حياتنا بشكل طبيعي إلى نازحين يبحثون عن متطلبات الحياة في رحلة النزوح والخيمة. وهذه الصورة التي أسردها هنا لا تشملني أنا وحسب، بل تشمل العديد من الزملاء الأكاديميين الذين أفقدتهم الحرب الحياة الطبيعية وفرص العمل والمشاركات والمنافسات في الحياة الأكاديمية.

ولأسباب صحية خاصة بالأسرة في زمن الحرب، قررت السفر إلى مصر. في البداية، وبعد وصولي إلى القاهرة، عشت مرحلة استراحة للتعافي الصحي والنفسي، إلى أن بدأت استعادة أنشطتي بالتدريج، وشرعت بالعودة إلى المشاركة الفاعلة من خلال المنابر والمواقع الإلكترونية التي كنت أشارك بها في السابق. وقد استمر ذلك إلى أن قررت إدارة جامعة الأقصى العودة إلى التعليم الإلكتروني، لأسباب وطنية وأكاديمية. ولا شك أن هذا العمل يتطلب قدراً كبيراً من الوقت والجهد نظراً لما تسببت به الحرب، ولما يحتاجه الطلبة من المساندة والوقوف إلى جانبهم في هذه الظروف القاسية. فالوضع النفسي لم يعد كما كان عليه في غزة، والوضع العقلي كذلك، إذ

ثمّة حالة من التشّت وعدم الاستقرار ونحن في الخارج. الأهل والأصدقاء لا يزالون داخل قطاع غزة، يتعرضون إلى التجويع والتطهير العرقي الذي يستهدف البشر والشجر والحجر. ويجب ألا ننسى أن جامعة الأقصى قدّمت العديد من صفوة العمداء والأكاديميين والأساتذة والطلبة شهداء على مذبح الحرية. إقامتي في مصر بعد عام ونصف، استقرت بالنسبة للحالة الأكاديمية، حيث عدت إلى كتابة الأبحاث العلمية، والمشاركة الحية المؤتمرات، وفي بعض مؤسسات المجتمع المدني، ومن ضمنها عملي كمنسق فرع فلسطين في الاتحاد العربي للإعلام والثقافة ورئيس تحرير مجلة ثقافية.

"ربما لم أكن سوى فنان، يحاول إحياء التراث الفلسطيني عبر لوحاته، حاولت أن أرسم فلسطين، وغزة في أعمالي، وأضفت إليها شيئاً من حزني الخاص. كنت أسعى للاحتفاظ بلامح الأرض ووجوه الراجلين، لأبقيهم أحياء في كل لون وخط. كانت لوحاتي صرخة هادئة تحكي قصة وطن جريح، وصوتاً لمن لا صوت لهم." الشهيد الفنان التشكيلي، فتحي غبن

يوميات في حياة الفلسطيني عبد الهادي بركة، صحفي من غزة، فلسطين

في طريق الطموح والمغامرة، بدأت التجربة على أرض غزة، مدينة فلسطين الساحلية الجميلة. سرت نحو بناء التجربة، لكنها لم تكتمل. ومع ذلك، كان هناك اكتمال داخلي في استعادة الزمن المفقود من الذكريات والتجارب، وطريق البناء مع الزملاء والأصدقاء. في غزة، عايشْتُ الأوجاع والآلام التي أصابت الوطن والإنسان الفلسطيني، ومارست العمل في الصحافة في بداية الطريق بالفطرة، حيث التحقت بكلية الصحافة والإعلام لدراسة البكالوريوس، ثم واصلت دراسة الماجستير. خلال تلك المرحلة، عملت على صقل تجربة العمل وتكوين الخبرة في مجال الإعلام والكتابة الصحفية. وقد شكلت انتفاضة الأقصى في العام 2000، لي ولأبناء جيلي، مرحلة من النهوض للبناء الوطني، فكنا جيلاً استفاق على حقيقة الوجود الفلسطيني.

من الجراح تولد الأفكار، ونحن نعيش في فلسطين جراحاً لا تنتهي، لكن الجرح الفلسطيني يجعل الأمل يأتي ببارقة الحياة، نحو البناء وإكمال الطريق. الجراح لا تتوقف، لكن الطريق تستمر بقوة الإصرار. كان عليّ أن أكون كأبي طفل فلسطيني يعشق وطنه، ويدرك مع من صراعه، وكيف يدافع عن أرضه بشتى الوسائل والأساليب التي تفرضها اللحظة. أثناء مكوثي في مستشفى المعمداني، الذي تعرض للمجزرة في حرب الإبادة الأخيرة التي لا تزال مستمرة، وجرحي ما زال نازفاً، في انتفاضة الأقصى، كنت أقضي وقتي أتابع الأخبار من خلال الجرائد. أخي الأكبر، ومرافقي في المشفى، "نادي"، كان يجلب لي كل صباح صحيفة الأيام، أقرأها بتمعن وأطالع مقالاتها. كما كنت أتابع الإذاعة، وخاصة "صوت فلسطين"، الذي كان يقدم برامج إعلامية وسياسية، ويستضيف المفكرين والمحللين، حتى صرت أعرف أسماءهم وأنتظر لقاءاتهم.

عندما حصلت على الثانوية العامة، كان هدي في أن أصبح صحافياً يعبرُ عمّا أصابه وأصاب وطنه من ظلم وقهر جزاء عدوان الاحتلال المستمر. بدأت أفكر كيف أنقل الكلمة الصادقة والمعبرة عن حقيقة ما

يجري، فالتحقت أولاً بقسم الإعلام والعلاقات العامة في جامعة الأقصى، التي كانت نافذتي الأولى نحو الإعلام والصحافة. تعرفت على مبادئ الإعلام والعلاقات العامة، وبدأت التطوع في بعض المؤسسات، وتكوين العلاقات مع زملاء الدراسة والعمل الحر. ثم انتسبت إلى نقابة الصحفيين الفلسطينيين، وبدأت أكتب المقالات في المواقع الإخبارية الفلسطينية، وأشارك في الفعاليات والندوات التي تدعو إلى إنهاء الانقسام، على أمل أن يحلّ قريباً، وأن أحظى بفرصة عمل أفضل. لكن، للأسف، ظل التوظيف قائماً على أسس حزبية، لا على الكفاءة.

واصلت الدراسة، فالتحقت بكلية الإعلام والاتصال في جامعة فلسطين، قسم إذاعة وتلفزيون. هناك، وجدت بيئة أكاديمية غنية بالزملاء والصحفيين وأصحاب الكفاءة. اكتسبت المهارة الأكاديمية، وصقلت نفسي بالعديد من المهارات، وعملت في الإعلام الحركي والتنظيمي، وشاركت في العديد من المناسبات الوطنية. أنهيت دراسة البكالوريوس بدرجة امتياز، وبفضل علاقتي مع الدكتور حسين أبو شنب، عميد كلية الإعلام آنذاك، حثّني على التقديم للدراسات العليا، بل واصطحبني معه لحضور مناقشات علمية، على أمل السفر إلى الخارج لاستكمال دراستي. لكن الأوضاع في غزة كانت دائماً متوترة بفعل العدوان المستمر، فلم تتح لي فرصة الخروج، فأثرت الالتحاق بالدراسات العليا في كلية الآداب، قسم الصحافة والإعلام، في الجامعة الإسلامية في غزة، حيث حصلت على درجة الماجستير بتقدير ممتاز، في العام الذي سبق الحرب.

بعد التخرّج، تقدّمت للحصول على فرصة عمل في الجامعات الفلسطينية في غزة، لكن لم أوفق، نظراً لوجود العديد من حملة الدكتوراه الذين لم يحصلوا حتى على فرص عمل بنظام الساعة. واصلت عملي التطوّعي، والكتابة في بعض المواقع، بانتظار إيجاد الفرصة. ثم جاءت الحرب "الإسرائيلية" الإبادية على غزة قبل نهاية العام 2023، فاجتاحت ليس فقط الأرض والمباني والبشر، بل كل ما بُني في سبيل المعرفة والعلم. دمرت الجامعات والمعاهد والمدارس، ودور العبادة، وأصبح لزاماً البحث عما يعين على الحياة. عملت مع زملائي الصحفيين في لجنة إدارة الأزمة لمدة أربعة أشهر، وواجهت الواقع بما فيه من ظواهر وأمراض مجتمعية برزت على السطح. لم يعد الإنسان آمناً في حياته، وتفشّت الجريمة، وفقد الناس القدرة على إدارة بيوتهم. تنقّلت نازحاً من مدينة دير البلح إلى بيت العائلة في خان يونس، حيث التقيت ببعض الزملاء، وعملنا على خدمة النازحين من خلال المؤسسات، محاولين تقديم ما نستطيع أمام معاناتهم الكبيرة.

في 3 تموز 2024، أصيب أخي سعيد إصابة خطيرة، فعملت منذ اليوم الأول على محاولة إخراجه من غزة للعلاج. وبعد انتظار خمسة أشهر، اتصلت بنا منظمة الصحة العالمية، للحضور في المستشفى الأوروبي فجراً. واجهتنا صعوبات في خروج زوجة أخي، لكن، بعد التشاور، غادر هو وزوجته، بينما رافقته بسيارة الإسعاف إلى المعبر المصري، ثم إلى مستشفى أبو خليفة في الإسماعيلية في جمهورية مصر العربية. بعد شهر من العلاج، سافر أخي إلى أوروبا لاستكمال علاجه، وأقمت أنا في مصر، أحاول التعايش، على أمل العودة إلى غزة وأهلها. لكن صورة الواقع، كما رأيته، كانت أكثر دموية وخراباً، وما زلت أنتظر أيّ فرصة للخروج مما نحن

فيه. وعلى الرغم من ثقل الواقع، وضيق الأفق الذي تسيطر عليه الحرب، وعدم الاستقرار، دون معرفة ما الذي سيحدث، فنحن على قيد انتظار ما ينهي حرب الإبادة.

"على الورق نرؤ من نريد، وفي الواقع لا نتوقف عن ردّ الصفعات، تلك المعضلة، الكتابة يا سيدتي شهادة من العذاب."
الراحل الكاتب غريب عسقلاني

رحلة الفلسطيني لا تنتهي... عزيز المصري، صحافي من غزة، فلسطين

عدت إلى غزة، في نهاية صيف 2022، بعد انتقال مجال عملي إليها بعد قضاء ست سنوات في مصر. بدأت العمل من جديد في الإشراف على "شبكة مصدر الإخبارية" بعد شهور من عودتي إلى غزة، التي كانت مختلفة في مجالات كثيرة عما تركتها قبل السفر. في ليلة جميلة، مع أجواء المقاهي والمنتجعات وشاطئ البحر، قلت لصديقي أحمد أبو ندا: أشعر أن هذه الأجواء الجميلة الهادئة وهذا العمران الكبير في شارع البحر، حيث كنا نسير، هدوء ما قبل العاصفة. من الملاحظ في تاريخ غزة أنها لم تعش فترات استقرار طويلة نسبياً، وكلما ازدهرت تتعرض لعاصفة أو جولة دمار أو انتفاضة... والدخول في سنوات من عدم الاستقرار النسبي.

مع أولى لحظات 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023، أيقنت هذه المرة لن تكون كجولات التصعيد الماضية، وأنا على أعتاب مرحلة ستغير كل شيء 180 درجة، من حياتنا الشخصية إلى واقعنا السياسي. ذهبت إلى المكتب مباشرة، وكان أول قرار إخلاء المكتب إلي مكتب آخر أكثر أمناً، لمعرفتي أن البرج سيكون هدفاً للاحتلال لوقوعه في مربع حكومي وفصائي. تابعت من شرفة برج الغفري مشاهد التدمير والقصف غرب وشمال غزة. وجاءني اتصال، في اليوم الثاني للحرب، من الصديق الفرنسي أريك، مراسل راديو فرنسا الدولي، والذي عمل معي لفترات في قطاع غزة، وقال لي: "أتمنى أن تكون بخير، ونصحتي لك أن تغادر غزة في أقرب وقت. هذه المرة الأمر مختلف. أتمنى لك ولعائلتك السلامة والأمان." لم أستغرب من كلمات أريك، فهذا كان رأيي في صباح السابع من تشرين الأول/أكتوبر 2023، هو أننا على أعتاب مرحلة جديدة مختلفة كلياً، وتداعياتها لن تقتصر فقط على قطاع غزة، بل سوف تمتد إلى دول الجوار والإقليم، وستغير في المشهد الدولي بشكل أو بآخر... لكن لم أفكر في السفر ومغادرة قطاع غزة في ذلك الوقت.

في فجر يوم الجمعة 13 تشرين الأول/أكتوبر 2023، وصلني نسخة من بريد إلكتروني كان قد وصل إلى مؤسسات الأمم المتحدة في شمال وغرب غزة، بضرورة الإخلاء إلى جنوب قطاع غزة. وفي صباح اليوم ذاته عمّم التحذير نفسه على جميع سكان شمال وغرب غزة بضرورة النزوح إلى ما سُمّي، آنذاك، بـ"جنوب الوادي"، وادي غزة، والذي يمتد من المنطقة الوسطى إلى مدينة رفح. وبالفعل، غادرت المكتب ظهر الجمعة، ولا أدري إلى أين أذهب. عرفت يوم السبت أن العائلة انتقلت إلى المنطقة الوسطى، في مخيم النصيرات، فلحقت بهم، بعد وداع الأصدقاء والزلاء الذين ذهبوا لتفقد عائلاتهم وللقرار بخصوص كيفية التصرف بين من اختار البقاء في شمال

غزة وبين من اختار النزوح مع عائلته إلى جنوب قطاع غزة. في هذه الفترة، عانيت من صعوبات كبيرة في التأقلم وفي متابعة إشرافي على العمل، فكلفت فريقاً من الزملاء، المتواجدين في مصر، بالعمل الإعلامي على المنصات الإخبارية التابعة للشبكة، لتعويض زملائهم في القطاع إلى حين تنظيم أمورهم وتوفير ما يلزم للعودة إلى العمل.

كانت تجربة النزوح قاسية ومذلة بكل معنى الكلمة، فأنت في تلك الحالة، مجبر على احترام البيت النازح إليه، وملزم بتوفير كل شي، حيث انقطعت الكهرباء والمياه وأصاب الضعف شبكة الإنترنت، وبدأت البضائع ترتفع أسعارها، وبعض الأصناف تنفد من الأسواق. وبالتالي، فقد أصبح توفير مستلزمات العائلة مهمة صعبة حين أضيفت إلى مهمتي في متابعة عملي، خاصة مجال الدراسات السياسية والبحثية، والعمل الصحفي الذي كنت مشرفاً عليه، وكانت هناك طواقم منتشرة في الميدان تقوم بمهامها. مع مرور الوقت عانيت من انقطاع الإنترنت والكهرباء وصعوبة شحن أجهزة التواصل والحاسوب، وتنقلت عدّة مرات في أماكن النزوح حتى وصل الأمر، في آخر محطة، لاستئجار شقة سكنية تعرّضت سابقاً للقصف في جزء منها. هذا بالإضافة إلى البرنامج اليومي الذي يتضمن السعي لتوفير المياه الصالحة للشرب والتنظيف، وجلب الحطب، وتأمين ما يتوفر من طعام وخضروات إن وجدت.

تأثر مدخولي المالي، ومع ظروف الحرب فقد جميع أفراد العائلة مصادر الرزق، وصرت أنا المعيل الوحيد للعائلة تقريباً. في هذا الوقت، تطلّب عملي الجديد اللجوء إلى خيار السفر، وكان قراراً صعباً للغاية، بين السفر وترك العائلة في غزة أو البقاء معها. ساعدني في القرار أنني غير متزوج، ولي شقيق أصغر مني يمكنه مع والدي إدارة شؤون العائلة، وأنا أساعد من الخارج. وبالفعل، كان لسفري أهمية كبيرة في توفير كل ما يلزم العائلة من أموال ومستلزمات، ولو بقيت في غزة كنت سأعاني أنا والعائلة من قلّة المال والحيلة. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ تسافر في ظل هذه الظروف هو أمر قاسٍ للغاية، فأنت تغادر ولا تعلم إن كانت هناك فرصة لعودة قريبة إلى غزة، تسافر وأنت لا تعلم مصير عائلتك من خلفك. وعلى سبيل المثال، عندما يظهر في شريط الأخبار خبر عن قصف في مكان إقامة عائلتك، تبقى على أعصابك مشدوداً، تحاول معرفة الهدف المقصوف، وهل تضرر أحد من أفراد العائلة أم لا. ومن المفارقات، أنك تفرح وتسعد أن عائلتك بخير نتيجة القصف الأخير للمكان، ولكن في نفس الوقت تشعر بالحزن لأن هناك عائلة أخرى قد ذهبت ضحية لهذا القصف ذاته. هذا شعور قاسٍ جداً، وصعب أن تشعر بالراحة لنجاة عائلتك وفي نفس الوقت بالحزن لموت عائلة أخرى... شعور متناقض وصعب للغاية، لكنّها الحرب تفعل ما تفعله في الإنسان وتولّد فيّ تناقض المشاعر الأحاسيس والتفكير وتضاربها. غير أن اليوم الأصعب كان يوم دخول قوة خاصة إلى مخيم النصيرات، لتحرير أسرى "إسرائيليين"، حيث أصيب والدي بجراح متوسطة نتيجة القصف العنيف من الطيران "الإسرائيلي". كان والدي قد طلب عدم إعلامي بالخبر، إلى أن عرفتُ بعد عدّة أيام بطريق الصدفة. هذا الحدث جعلني أتواصل بشكل يومي مع العائلة والأصدقاء في محيط العائلة لأكون على دراية كاملة بكل ما يحدث وما يرافق ذلك من أعصاب مشدودة وتفكير دائم. هذا عدا عن صدمة فقدان أعز الأصدقاء، مثل: الصديق العزيز أكرم أبو شعبان، ومراد أبوغولة، وفادي أبو عجوة، وعقل صلاح، وحسن اصليح... والكثير من الزملاء والمعارف والأقارب والجيران وأشخاص جمعتنا ذكريات ومواقف خلال سنوات الدراسة والعمل.

سافرت بطريقة مريحة مقارنة بغيري من المسافرين، إذ تكفّلت إدارة العمل بالتنسيق لي، وبالتالي، لم أدفع مبلغ تنسيق، لا أملكه أصلاً، وكان يوم سفري مريحاً، نوعاً ما، خاصة إنه تصادف مع يوم الجمعة وقلة عدد المسافرين في ذلك اليوم. خلال رحلة السفر كانت لنا استراحة لمدة ساعة ونصف في الإسماعيلية، إذ وصلنا إليها بعد المغرب بقليل في شهر رمضان (آذار/ مارس 2024). كان مشهد الأطفال المسافرين معي في الحافلة عند رؤية الحلويات والشوكولاتة والمشروبات الغازية والشيبس محزناً ومفرحاً في آنٍ معاً، فقد كانوا محرومين من شراء هذه الأشياء في غزة، إما لندرة وجودها، أو لارتفاع سعرها المبالغ فيه... مشهد يختصر واقع الحياة والحرمان. وصلت القاهرة في المساء، واستحممت، لأول مرة، دون تسخين مياه على الحطب كما كنت أفعل فترة النزوح لعدم وجود مياه ساخنة بفعل انقطاع الكهرباء والمياه. كان أول ما فعلته أنني دحّنت لأول مرة دخاناً جيداً، إذ كنت في غزة أدخّن دخاناً "عربي" ذا رائحة سيئة للغاية! شربت القهوة الأصلية بعد شهور من الانقطاع، وتناولت ما أرغب به من طعام مفضّل لديّ. تناولت بعض الخضروات والفواكه غير المتوفرة في غزة... شعرت أنني تحرّرت، لكن الغصة بأن العائلة محرومة من هذه الأشياء.

لم يختلف الأمر في سفري كثيراً عن فترة وجودي في غزة خلال الحرب، فعملي هو العمل ذاته في مجال الأخبار والصحافة والدراسات السياسية، والذي اختلف فقط أنني في أمان، أتابع الأخبار بشكل يومي، وأغلب الأوقات ساعة بساعة، أعرف الأخبار قبل أن يعرفها سكان غزة أنفسهم. وفي هذا السياق، ينطبق علينا مقولة: "غادرنّا غزة، ولم تغادرنا غزة"... نسهر مع الأصدقاء، ولا حديث بيننا إلا حديث غزة، ومفاوضات التهدئة، وأخبار الأصدقاء المتواجدين في غزة، وأخبار عائلتنا، فكلّنا لنا أهل وأصدقاء بقوا في غزة.

استثمرت فترة وجودي خارج غزة في الحديث عن واقع الإبادة في القنوات التلفزيونية والصحف المصرية والعربية والدولية، قابلت شخصيات عربية وأوروبية تربطني بهم علاقة صداقة بحكم العمل المشترك في غزة وخارجها في سنوات مضت، وتحدّثنا حول غزة وواقع الحرب خاصة وأن هذه الشخصيات تتواجد في مصر لمتابعة شؤون غزة بحكم عملهم في السفارات والمجتمع المدني والإغاثة والصحافة ومراكز الدراسات حول العالم. حاولت قدر المستطاع أن أنقل صورة الحياة اليومية الصعبة، فأخبار القصف لا تحتاج من ينشرها، إذ إنها تُبث مباشرة بأعلى جودة عبر قنوات التلفزيون ومواقع التواصل، لكنّ صوت الناس الحقيقي ومعاناتهم في الميدان وانشغالهم في توفير أدنى متطلبات الحياة، يجهلها الكثيرون ممّن هم خارج غزة... حاولنا قدر المستطاع إيصال صوت غزة إلى العالم من خلال المقابلات والتقارير واللقاءات والمتابعات والعمل.

التواجد خارج غزة في هذا الوقت، أمر صعب، من حيث التشّنت في التفكير بين ما ينتظر في الخارج، وخشية عدم السماح لك بالعودة، والعيش على أعصاب مشدودة تجاه كل تطور يحدث في غزة... إنه أمر صعب جداً. نعم قد نكون في أمان فلا نسمع أصوات قصف، ولا خوف من تعرّضنا للقصف والموت والتحوّل إلى أشلاء، لكن يكفي أن نسمع صوت طائرة مدنية على سبيل المثال ذاهبة إلى مطار القاهرة أو خارجة منه، لتشعر بشكل لا إرادي أن هناك احتمالية قصف لأن صوت الطيران ارتبط في المخيلة الفلسطينية الغزّية بصوت قصف سيأتي بعد قليل.

هذا الشعور اللا-إرادي يختصر كل شيء: إنها فوبيا صوت الطائرات حتى لو كانت طائرات مدنية.

"في بعض الغياب حضور أكبر"

الشهيدة الصحافية شيرين أبو عاقلة

كان يمكن أن يكون كابوساً، لو لم يكن كابوساً أسامة الأشقر، كاتب وأسير محرر ومبعد خلال الحرب على غزة، فلسطين

جملة غامضة، عصيّة على الفهم، فاسية المعاني والدلالات، تختزن أكثر مما تفصح به. أحياناً تهبي لك الحياة مقاديرك، تلك التي تتوق إليها حدّ الاستعداد لدفع ثمنها الباهظ من روحك على الرغم من أنك لا تستطيع الاستغناء عنها. وأحياناً تسدّ فاتورة كنت قد دفعت أضعافها من قبل. وأحياناً أخرى تنتظر دورك لتروي حكايات لم تكن لتخطر لك على بال. إنها مقولات أشبه بالطلاسم، غائمة الملامح، غامضة المقاصد، لكنّها حقيقية، تنبض بتفاصيل عالمتا الذي ينزف الآن دماً حياً. سأحاول تفكيكها واحدة تلو الأخرى... إن استطعت.

ما أبهى تعبير "أسير محرّر"! كم حلمت به، وكم نسجت له صوراً وحكايات، وكم أنشدته قصائد، وحدي أحياناً، أو بصوت جماعة، أو بين جدران [السجون] المقابر التي تحاصرنا. الأسير المحرّر: الحلم، والتهمة، والحمل الثقيل. تبدأ الحكاية حين تنتهي الكلمات. من حلم طال انتظاره، إلى جرح لا يلتئم، تتردّد في أعماق الروح أصوات الأصفاد، ويتعقّبنا شبح بحجم السماء مع كل ابتسامة، وكل نفس، وكل إفاقة من حلم. السجن يغادرنا شكلاً، لكننا لا نغادر جدراننا التي تُطوّق أعمارنا كما تُطوّق الطحالب صخرة في قاع البحر.

في حضرة الحياة، يبدو الموت أمراً عادياً، ويبدو النسيان واحدةً وارفة تزداد اتساعاً كلما تكشف حجم المجزرة. الأرواح لا تبكي لأنفاسها الضائعة، بل لمن بخلت عليه السماء بكسرة خبز، أو قطرة ماء. يا إلهي، ما أشدّ وجعنا فوق الوجع! مطارّد، أسير، جريح... ثم أسير محرّر، مبعّد داخل جدران جديدة، وأصفاد أشدّ قسوة—أصفاد الضمير، والمجتمع، والوطن. ويشتدّ القفل كلما اتّسع ظلّ الضمير في صدرك.

وعلى وقع المجزرة، بطلّ مشهد آخر: بعد الحرية، تُعتقل من جديد، ثانية، وثالثة، وألفاً... في سجون الإبعاد والأبعاد. تحاصر ذاك المستبعدة أولاً، والمبعدة ثانياً، والمؤبدة بالإبعاد، حتى تصحو على صاعقة تهز أركانك، فتتمنى، على قسوته، لو عدت إلى المؤبّد الأول، مستريحاً ومستراحاً منك، لا لك ولا عليك.

المنفى أكثر تعقيداً مما يُتصوّر. الحكايات فيه تتشابه حتى تفقد فرادتها، ويغدو العادي هو الاستثناء، والاستثناء أكثر من عادي. تنكمش في ظلال الآخرين، وتصبح ألوان الحياة باهتة. حتى التسؤل، والاسترقاق، والاستحمار، وكل

ما لا يخطر على القلب... يصبح مألوفاً. ترى الأطفال كظلك، والنساء كظلك، والرجال المقهورين كظلال هائمة. كل هؤلاء... أنا، الذي كنت أتباهى بتفردّي في الألقاب. أي لقب هذا؟ نفّي.. منفّي.. منفّي من الاشتياق إلى الحياة! مَنْ الذي اخترع هذه الكلمة حتى صارت مفتاحاً لكل المحرّمات في هذا الكون الفسيح؟ في المنفى، يغدو الغريب مألوفاً، والمأساة نمطاً يومياً.

مبعدٌ، طريدٌ، منفّيٌّ، أو مقصّيٌّ من الحياة... كلمات تتشابه، لكنّها لا تختصر الحكايات اليومية المؤبّدة، ولا تستطيع النفاذ إلى غور الحكاية الجديدة التي يأتي بها اللجوء القسري، لجوء يحمل معه الأضداد والمتناقضات والأوهام، بعيداً عن أيّ حلم. واليوم، على أعتاب مؤبّد جديد، يفتح شهيته بشره، نتقاسم "لاءاتنا" مع جموع مبعثرة هنا وهناك. كلٌّ يبحث عن ظل قمر، أو ظل شجرة، أو جدار يستند إليه، يروي له الحكاية من اللجوء الأول، إلى النزوح الثاني، إلى النفى الثالث، حتى حكاية الألف محاولة للاجتثاث والاقتلاع... يرويها دون أن يضيق صدره.

"نحن أناس أحرار رغم السجن، الحرية هنا انتصار للإرادة والأخلاق. وحين يخاطب العالم الخارجي، عبر نص أو لوحة، فنحن لا ندعوهم للتضامن معنا، كحالة إنسانية، وإنما ندعوهم للانتصار لأخلاقهم وإنسانيتهم، مع أهم قضية سياسية عرفها التاريخ." الشهيد الأسير وليد دقة

سنوات المطاردة والاعتقال حتى الإبعاد

رائد عبد الجليل، كاتب وأسير محرر ومبعد خلال الحرب على غزة، فلسطين

قبل ما يقارب ثلاثة وعشرين عاماً، وبعد مطاردة من قوات الاحتلال استمرّت عاماً ونصف، وقعتُ في الأسر. كنت أعلم أن الاعتقال قادم لا محالة، لكن لم أكن أتخيّل حجم ما ينتظرني خلف الأبواب المغلقة. زُجّ بي مباشرة في أقبية التحقيق، حيث كان الجسد والعقل هدفاً لكل أساليب القهر: تعذيب نفسي متواصل، واستنزاف عقلي، وإرهاق جسدي حتى الإنهاك. جلسات "الشُّبْح" على الكرسي استمرّت لأيام، وأحياناً لأكثر من خمس عشرة ساعة متواصلة تحت برد قارس يلسع العظام. كانت تلك الساعات تمحو حدود الوقت، ولا يظُلُّ في ذهنك إلا خياران: الصمود أو الانكسار، وقد اخترت الصمود.

بعد أن أنهكتهم محاولات كسر إرادتي، نُقلت إلى سجن "هداريم" (قرب قرية أم خالد المطهرة عرقياً على الساحل الفلسطيني)، أول محطة لي في رحلة الأسر. ما زلت أذكر جيداً تلك اللحظة: لحظة وصولي كان في استقبال عدد من الأسرى، يتقدّمهم رجل مهيب يخطو نحوّي بكل هدوء وتواضع. مدّ يده وصافحني بحرارة قائلاً: "أهلاً يا بطل، الحمد لله على سلامتك." كان ذلك القائد مروان البرغوثي، الذي يعرفه كل من في السجن وخارجه. احتضنني، وأوصلني إلى الزنزانة، ثم عاد بعد قليل حاملاً بعض الملابس من أغراضه الخاصة، وهو يعتذر قائلاً: "لا تؤاخذني يا بني، هذا ما أملكه." تلك اللحظة، بما فيها من إنسانية ودفع، كانت كفيلة بأن تمحو شيئاً من قسوة الأيام السابقة. في "هداريم"، التقيت برجال حملوا قامات أكبر من القيود: الشهيد القائد ميسرة أبو

حميدة، والشهيد المعلم وليد دقة، وأخي المناضل ياسر أبو بكر... وغيرهم كثير. لم يكونوا رفاق أسر وحسب، بل كانوا أساتذة في الصبر والرؤية والكرامة. علموني أن السجن ليس جدراناً وأسلاكاً فقط، بل يمكن أن يكون مدرسة تُخرِّج وعياً جديداً وفكراً أعمق.

في السجن، عليك أن تختار منذ اليوم الأول: هل تريد أن تكون أيامك امتداداً لنضالك ومقاومتك، من خلال صمود لا ينفد وإرادة لا تُكسر، أم تريد أن تستسلم لليأس والانهزام؟ هذا الاختيار لا يتحقق إلا إذا غذيت روحك ووعيك وعقلك، وحافظت على جسدك ونزواتك تحت السيطرة. في لحظة فارقة، تحوّل السجن بالنسبة لي من نقمة إلى فرصة. نعم، فرصة، بل واحدة من أكبر نعم الله عليّ. قد يرى البعض في كلماتي مبالغة تصل حدّ الاستخفاف، لكن هذه هي الحقيقة التي عشتها. في البداية، همست لي نفسي: "لقد فعلت الكثير من أجل وطنك وشعبك." لكن، مع مرور الوقت، اكتشفت أن وطني وشعبي هما من منحني شرف الدفاع عنهما. هما من انتشلاني من شخص مغمور، لا حول له ولا قوة، لا يعرف قيمته الإنسانية، وحوّلاني إلى إنسان يحمل وعياً وقضية وفكراً. عندها شعرت بشيء من الشفقة على أولئك الذين لم يناضلوا ولم يضحوا، ولم يعيشوا ساعة وجع واحدة في سبيل وطنهم.

لقد غيرتني تجربة الأسر من الداخل، وعلمتني أن الاحتلال قد يقيّد جسدك، لكنّه لا يستطيع أن يقيّد إنسانيتك أو يسلبك كرامتك. والأبطال الذين عشت بينهم، كانوا الدليل الحي على أن الروح قادرة على أن تزهر حتى خلف القضبان. ومن بين ركام البيوت والمآذن المكسورة، خرجنا نحو حرية مزرقة بدماء الأطفال والشيوخ والنساء. في سجن النقب، رأينا شيوخاً أهزلهم الجوع، وأطفالاً صمتوا من الألم، لكنّ عيونهم كانت صلبة لا تنكسر. حكى لنا الأسرى عن غرة المحترقة والبيوت التي صارت رماداً، ومع كل وجع قالوا: "المهم أنكم خرجتم." ظهر علاء سميري، الذي دفن أبناءه وزوجته قبل اعتقاله، وقال: "لو علمت أن استشهداهم يحرركم، لدعوت الله أن يستشهدوا يوم وُلدوا." أدركنا أن حريتنا كانت ثمرة أكبر فداء في التاريخ... لن أتركك.

إلى من رأيت صورتهم على جدران المخيم: الشهيد أيمن نصار، والشهيد محمد عرفات الأقرع، والشهيد إياد أبو دياب، إلى الفتاة الشهيدة التي سقطت برصاص العدو على بعد مسافة قصيرة مني، حين رأيت دماغها يغلي كالبركان على الأسفلت في انتفاضة الأقصى، إلى شهداء فلسطين النائمين تحت الأرض وضحاياها وأسراها والمفقودين والنازحين، إلى أطفال فلسطين أجمل ما في العالم، إلى من جلست طفلاً معهم: الفدائيين في المطاردة والفداء، وكبرت حاملاً سراج صورتهم... سأكتب والفقد أوسع من عمر الكلام، إلى أصدقائي الشهداء في غزة زمن الحرب والإبادة، هناك كانت آخر الكلمات وهنا أصواتهم تملأ عقلي. إلى أخي ورفيق قلبي الأسير جمال حويل، أحبك كما أحببت غزة وكل فلسطين، وسأفعل بمقتضى رسالتك الأخيرة، وأكتب بصدق الحقيقة لا جمالها. إلى طفلة الخيمة في ثياب الحداد يا أجمل ما خلق الله، إلى العاشقة من غرسوا في قلبها الفقد، نحبك أكثر لأنك تطعمينا رائحة الحب والحياة. الكتابة لم تتوقف ولم تنتهِ في زمن سريع الفقد والزوج، زمن لم يتوقف فيه صوت الطائرات، زمن طويل لم ينتهِ من التجويع، زمن أطول من عمر الأرض بحجم الراحلين تحت التراب، بحجم الركام، والطرق المدمّرة. عمر الحقيقة يزيد من عمر المسافة والزمن حيث الشهادات جسر طويل في

رحلة الفلسطيني. حتى يعود الورد على الحجر، وعاشقة نسيت الحقيبة في الحرب، وطفلة تنام بين الخوف والجوع والفقد... إلى روح أول شهداء فلسطين، إلى الطفل الذي لم يولد بعد، إلى سنبل الأرض في عصر الحرب، إلى غزة وحتى جنين من يافا وعكا والقدس وكل ما تحمل فلسطين، أكتب وأنتمي بين النهر والبحر والحجر وعطر المرمية والزعر، ونوم الشهداء حتى يعودوا وهم حراس الحقيقة.

"إذا كان ثمن حرية شعبي فقدان حربي، فأنا مستعد لدفع هذا الثمن."
الأسير القائد مروان البرغوثي

محمود بركة إعلامي وأكاديمي من غزة، فلسطين

سأترك، للكتابة المفتوحة في الزمن الصعب، في نهاية بلا نهاية، قصيدة قصيرة بكلمات تحمل الزمن المسجل في غزة، للشاعرة نجياً محمود، ولا زالت تكتب... وتكتب... كلمات تحمل مساحة القصيدة الفلسطينية:

"حين يصبح الكحل درعاً...

اشتقت أن أكون برائحة الياسمين، لا برائحة النار،

أن يكون يومي شاقاً بسبب جولة تسوق، وبحثي العنيد عن لون الراج الذي يشبهني،

لا لأننا عدنا نُساق إلى أيام الجاهلية. أشتاق أن أرى يديّ كما أحب: بأظافر وردية،

لا بلون الرماد، ولا بإشعال ما أجد أُمامي من حطام.

وأن تكون مشكلتي كسر ظفر، لا كسر قلبٍ كلما سقط صاروخ على حيّ أعرفه.

أن أنظر في مرآتي مطوّلاً، لا لأتأكد من بقاياي، بل لأصحّ مسارَ خط 'الايلاينر'.

أحنّ لأن أبذل جهدي لأرفع الأوزان مع 'الكوتش' إيمان،

لا أن أكون الأولى على المخيم في نقل الماء.

أن أعدّ لقماتي الصحية بدقة، لا أن أتركها لغيري، علّ أحدهم يشبع.

أن أنهي عرضي التقديمي أمام 'لابتوبي'، لا أن أنهك في عرض معاناتي أمام خيمة.

أشتاق لفنجان قهوتي القاسية في الصباح، لا لفنجان "القوة" التي تسبق تحدّي البقاء.

حين يصبح الكحل درعاً، تصبح الحياة معركة، وأنا فيها... لا أزال واقفة... أقاتل بجمالٍ عنيد... وأنتظرها" ◆